موقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر*

بقلم

الدكتور فلوجل – Dr. J. C. Flugel

كنت أستطيع أن أختار عناوين أخرى مثل « التحليل النفسى بعد خمسين عاماً » أو « التحليل النفسى بعد مضى عشرة أعوام على وفاة مؤسسه » . فلقد ظهر كتاب فرويد Freud « تأويل الأحلام » فى بداية القرن تماماً ، وهو الكتاب الذى وضع التحليل النفسى على الخريطة وضعاً لا رجعة فيه باعتباره موضوعاً يلق أهتمام الجميع (أفلا نحلم كلنا ؟) ، وباعتباره متميزاً من الكتابات المتناثرة فى الطب العقلى ، التى ساهم فرويد حينئذ فيها بكتابه القديم « دراسات فى الهستيريا » الذى ألفه مع بروير Breuer . أما عن العنوان الثانى . فمنذ عشرة أعوام تقريباً ، فى الشهر الأول من الحرب ، مات فرويد . كلاجىء عظيم فى بريطانيا ، وبالنسبة لأية مدرسة أو حركة كالتحليل النفسى ، تدين بنزوعها إلى معلم واحد ذى شخصية بارزة ، لا بد وأن يكون العقد الأول الذى يتصرم عقب وفاته مرحلة حرجة شديدة الخطورة ، تتوثب فيها الميول الخفية التى تعمل على التشتيت والفساد ، تتوثب لتبرز سافرة بمجرد اختفاء أثر الرأس الأكبر والمؤسس . والواقع أنها مرحلة اختبار ، سوف تكشف عما إذا كان هذا المؤسس قد حالفه التوفيق لا لشىء إلا لصفاته الشخصية ، أم أنه نجح فعلا فى التأثير فى اتجاهات الناس وولائهم بحيث يستطيع عمله أن يتقدم وينمو – ولو أنه هو نفسه لم يعد موجوداً ليوجه أتباعه ويشجعهم ويؤلف بينهم . والتحليل النفسى ، من بين الحركات العلمية ، هو من خلق جل واحد إلى حد كبير جداً ، ومن ثم فإن الاختبار الذى نحن بصدده له أهمية وغير عادية .

(١) "Where Stands Psychoanalysis Today", by J.C. Flugel, ("The Rationalist Annual", London, 1951).

على أنه بالرغم من الدمار الذى أحدثته الحرب العالمية وما جاء فى أعقابها ، فإن التحليل النفسى ما يزال إلى اليوم مليئاً بالحيوية والعنفوان . ولا جدال فى أنه ككثير من جوانب حضارتنا القائمة ، اضطر أن يقوم بكثير من التنقلات الجغرافية و « اتجه غرباً » . ففى أوربا الوسطى ، حيث مسقط رأسه ، لا يعرفه إلا القليلون ، وبين أفراد الجيل الناشئ فى النمسا وألمانيا لم يكد يفيق من الضربة التى سددها إليه المتلرزون . ولكن على الشريط الغربى للقارة بما فى ذلك سويسرا ، وفى شمال أمريكا بدرجة أكبر ، نراه يزدهر بل ويستمتع بما يشبه « التضخم » ، ولا أدل على ذلك من كثرة الإشارة إلى المواقف التحليلية فى الكتابات الكوميدية الشائعة بين المثقفين وهذا الطوفان من الأفلام التى تتناول موضوع « العقد » وفقدان الذاكرة تناولا رواثياً (يتجه إلى التبسيط المخل عادة) . ولقد هاجر معظم الكتاب فى التحليل النفسى الذين ظهروا فى أوربا الوسطى ولا يزالون على قيد الحياة ، هاجروا إلى بريطانيا ، أو الولايات المتحدة ، أو بلاد أخرى أبعد من ذلك ، بينما حلت اللغة الإنجليزية محل الألمانية باعتبارها اللغة الرئيسية للتأليف فيه والاشتغال به . والمحللون النفسيون مرهقون بالعمل ، إذ أن الطلب فى كثير من المواطن يفوق العرض . ومن الناحية العلمية ، يمكن القول بأن الجمعية الملكية القائمة فى إنجلترا قد ختمت بخاتم التبجيل حركة التحليل النفسى بأن خلعت على فرويد نفسه ذلك الامتياز النادر امتياز العضوية للأجانب عقب وصول هذا العالم إلى هذه المملكة — وتلك حقيقة تدهشنا عند ما نقابل بينها وبين حملة النفى والتشهير والسخرية التى كان يلقاها التحليل النفسى من الدوائر العلمية والطبية عند بدء ظهوره . وكذلك نشهد نجاح التحليل النفسى فى الطريقة التى تسربت بها بعض مصطلحات التحليل النفسى إلى الحديث اليومى للمتعلمين ، نذكر من هذا القبيل « الكبت » و « التسامى » و « التبرير » و « الانطواء » وناهيك بما لقيته « عقدة النقص » (وهى اصطلاح شعبى أكثر منه اصطلاح فى الطب العقلى) . أما فيما يتعلق بالطب العقلى ، فإن من كان يتردد على اجتماع إحدى الهيئات الطبية السيكولوجية ، ثم انقطع لفترة غير يسيرة ، ليدهشه أن يرى المعانى الفرويدية العامة ، التى كانت تلقى المعارضة الشديدة والخلاف منذ عشرين سنة تقريباً ، أصبحت الآن مقبولة دون معارضة كعملة جارية تستخدم فى المناقشات . بل إن علم النفس الأكاديمى ، الذى كان بينه وبين التحليل النفسى أخدود عميق ، بدأ يتناوله باحترام . والواقع أن كل مرجع حديث أو سفر من

المحاضرات فى علم النفس يتضمن على الأقل إشارة إلى المعانى الفرويدية ، وفى الوقت نفسه يجد التحليل النفسى فى التقدير الشعبى (ولو أنه فى الغالب مهوّش ومشوّه . . .) اعترافاً فيه كثير من السخاء والحماس — حتى إن كفته لترجح لديهم كفة علم النفس كله باستثناء اختبارات الذكاء . والكثيرون ممن لم يسمعوا قط باسم فونت Wundt ولاثورندايك Thorndike لا يغيب عنهم اسم فرويد .

ولقد يبدو أن الأعضاء الذين لا زالوا على قيد الحياة من الجيل القديم من المحللين النفسيين يدهشهم هذا النجاح . ففى خطاب . . . ألقاه إرنست جونز E. Jones سنة ١٩٤٦ يلخص فيه أهم انطباعات العمر نجده يقول إنه دهش بوجه خاص باتجاهين للارتقاء لم يستطع أن يتنبأ بهما الرواد الأول . فأما الاتجاه الأول فهو التقبل الشعبى الذى لم نكد ننته من الإشارة إليه . ولو أنه يذكرنا فى الوقت نفسه بأن هذا التقبل ليس من العمق بقدر ما هو من الاتساع . وأما الاتجاه الثانى . . . فهو يتمثل فى الخلافات والانشقاقات بين المحللين النفسيين أنفسهم . فمنذ سنة ١٩١٢ تقريباً وما بعدها ، عند ما ترك يونج Jung وأدلر Adler لأول مرة الجسم الأصلى الذى كان يضمهما ، ليكوّنا مدرستين خاصتين بهما ، منذ ذلك الحين وهذا النوع من الانشقاقات يحدث بكثرة لا سبيل إلى التغاضى عنها . وإذا غضضنا النظر عن أولئك الذين ثاروا لأسباب شخصية ضد المكانة غير العادية التى استمتع بها فرويد نفسه كمؤسس للحركة ومبتكر لمعظم اتجاهاتها الكبرى (وأدلر أعظم من يمثل هذا النوع من التمرد) فيبدو أنه كان لهذه الانشقاقات سببان رئيسيان . ويأتى فى المكان الأول نشاط عمليات المقاومة . . . ضد الاكتشافات المثيرة للتحليل النفسى (بهذه الصورة غير السارة للطبيعة البشرية التى تضمنتها تلك الاكتشافات) وهى نفس عمليات المقاومة التى ظهرت لدى العامة فى نطاق واسع (ولا يزال يونج بالتجائه فى النهاية إلى الغيبية المنمقة من النوع « الصاعد » هو المثل الأكبر فى هذه الفئة) . ويلى ذلك . فى المكان الثانى . تلك الرغبة التى لا غبار عليها . وهى أجدر الرغبات بالاعتبار . وأعنى بها الرغبة فى العثور على شكل آخر من أشكال العلاج للاضطرابات العصابية يفوق فى تأثيره وسرعته ما تقدمه الإجراءات الكلاسيكية للتحليل النفسى . بما فيها من استبارات قد تبلغ المئات وتستغرق فى أدائها عدة سنوات . فأما الذين انشقوا للسبب الأول . . . فقد جرت عادة كل منهم على أن يبدأ دوره الجديد بتأكيد وتنمية جانب خاص من اكتشافات التحليل

النفسى وكثيراً ما أضاف بعمله هذا إضافات هامة إلى معلوماتنا . ومن سوء الطالع ، أن مساهماتهم الإيجابية كانت تبدأ دائماً بتجاهل اكتشافات التحليل النفسى فى اتجاهات أخرى أو بمحاولة للتخفف من هذه الاكتشافات . وبذلك يعكس تاريخ التحليل النفسى تاريخ علم النفس كله بانقسامه إلى مدارس متحاربة ، وقد توصلت كل منها إلى اكتشاف بعض الحقائق القيّمة أو المناهج المفيدة ، ولكنها تميل إلى النظر إلى نفسها بشيء كثير من الصلف والادعاء كما لو كانت وحدها التى تملك مفتاح الحق والتقدم . إن كثيراً من التواضع يعوز علماء النفس بوجه عام ومن هم من المحللين النفسيين أو « المحللين النفسيين الجدد » أو الباحثين عن « طرق جديدة فى التحليل النفسى » لأن الحقائق والمناهج التى سبق اكتشافها كثيراً ما تظل تحتفظ بقيمتها وأهميتها حتى بعد أن تضاف إليها الحقائق والمناهج الجديدة . والعقل الإنسانى متعدد الجوانب يسمح بتناول الموضوع من عدة نواح . فلا يمكن لأى مجهود فى أى جانب من هذه الجوانب أن يساهم بكل إمكانياته فى تحقيق الفهم الشامل . . . إلا إذا تعاون مع سائر الجهود ، والتواضع فى هذه الحالة يعنى أن المحللين النفسيين يجب أن يكونوا على حذر لئلا يغريهم البحث عن حقائق جديدة مقبولة بالتضحية بما يبدو فى التحليل النفسى الكلاسيكى غير مقبول لكنه صحيح . كما أن ممثلى التيار الكلاسيكى يجب أن يحترسوا بدورهم لئلا تدفعهم محافظتهم إلى رفض اكتشافات قيمة توصل إليها الثائرون[1] .

وفيما يتعلق بأولئك الذين كان حافزهم الرئيسى هو الرغبة فى اختصار العملية المضنية للتحليل النفسى الكلاسيكى فحتم علينا أن نشاركهم عواطفهم . ولقد أدى ذيوع أمر التحليل النفسى جنباً إلى جنب مع الإصابات النفسية . . . من جراء الحربين العالميتين ، إلى إرغام الجميع على الانتباه إلى بروز أهمية المرض النفسى وإمكانيات الشفاء ، ولكن التحليل النفسى بصورته الكلاسيكية ، الباهظة التكاليف فى الوقت والمال ، ما كان ليستطيع أن يقدم العون إلا للقلة القليلة من المصابين . فلا أقل ولا أصوب من أن تتجه الجهود إلى الكشف عن إمكانيات العلاج الرخيص الذى لا يستغرق وقتاً طويلا . وتعتبر تجارب التحليل التحذيرى[2] والتحليل

(١) « الأسس النظرية للتحليل النفسى » بقلم الدكتور سيزى جرجس – مجلة علم النفس – مجلد ١ عدد ١

(٢) « التحليل التحذيرى » بقلم الدكتور أحمد عزت – مجلة علم النفس – مجلد ٣ عدد ٢

التنويمي [١] والتحليل الجماعي والعلاج الجماعي بوجه عام من النتائج التي تستحق ما بذل في سبيلها من جهود . ولا يزال الوقت مبكراً جداً لإصدار حكم نهائي على قيمتها . ومع ذلك فربما كان الشيء الذي سيلزمنا التعرف عليه ، هو أن أمراض النفس عسيرة العلاج بأي منهج وأن أنواع « الشفاء » الدرامائي العاجل (الذي يتحقق « بالتصريف » Abreaction ، أو باكتشاف الصدمات التي نسيها الفرد) هي الاستثناء وليست القاعدة . والظاهر أن عامل الزمن يؤدي دوراً جوهرياً في تغيير النزعات الباثولوجية الكامنة في الأعماق . وربما كان التحليل النفسي الكامل وحده هو الذي يمدنا بالمعرفة المفصلة التي لا بد منها لفهم الطبيعة المعقدة للمرض النفسي فهماً يلائم تعقيدها ، إلا أنه في كثير من الحالات يمكن الحصول بطرق أقصر من ذلك على نتائج عملية قيمة ، كما يبدو من تخفيف معاناة المريض أو زيادة صلاحيته . ومع ذلك ، فإن التحليل النفسي ذاته هو الذي مكّننا بما أمدنا به من معارف من فهم تلك الطرق واستعمالها ، كما يدل على ذلك نفس استعمال لفظ « التحليل » في الأسماء التي أتينا على ذكرها . والواقع أن التحليل النفسي ، أصبح إلى حد كبير جزءاً مكملا للطب العقلي وعلم النفس المعاصر ، ولا يمكن تقدير آثاره ، بمجرد النظر إلى نشاط المحللين النفسيين المحترفين بالمعنى الدقيق ، كما كانت الحال منذ ثلاثين عاماً ، فالعلم الجديد المعروف باسم الطب السيكوسوماتي [٢] مثلا ، الذي يستهدف الدراسة التفصيلية للعلاقات بين الأمراض الجسمية وما لها من أسباب ونتائج ومصاحبات نفسية ، متأثر تأثراً عميقاً في جانبه السيكولوجي بأفكار التحليل النفسي ؛ بينما تقوم هذه الأفكار بمهمة لا تقل عن ذلك خطورة في جانبه الخاص بالتطبيقات الاجتماعية وذلك في المهمة الجديدة المنوطة بالباحث الاجتماعي الملحق بعيادات الطب العقلي ، وفي تلك المؤسسة الراسخة البنيان أعني مركز رعاية الطفل . وفي الخطوات الحديثة التي يخطونها نحو مشاكل الجناح . وفي التربية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا [٣] . كذلك كان للتحليل النفسي بلا جدال تأثير بالغ العمق في

(١) « التحليل التنويمي » بقلم الدكتور صبري جرجس – مجلة علم النفس – مجلد ٣ عدد ١

(٢) « فصول في الطب السيكوسوماتي » بقلم الدكتور مصطفى زيور – مجلة علم النفس – مجلد ١ عدد ١ ومجلد ٣ عدد ١ ومجلد ٥ عدد ٣

(٣) « التحليل النفسي والدراسات الاجتماعية » بقلم مصطفى سويف – مجلة علم النفس – مجلد ٤ عدد ١

الفن والأدب[١] (والواقع أن الأدباء كانوا أكثر ترحيباً بالآراء التحليلية من زملائهم العلماء) ، بينما حدث نفس الشيء بالنسبة للاتجاهات نحو المشاكل الجنسية فقد تغيرت هذه الاتجاهات كما أصبحت المناقشات فى هذا المجال حرة إلى حد كبير (ولو أننا لا نستطيع أن نغفل فى هذا الصدد أثر العلماء الآخرين ، من أمثال هيرشفيلد Hirschfeld وهافلوك إليس H. Ellis ، وكذلك أثر الأحداث العالمية الأخرى) . وعلى ذلك فمن الإجابات التى يمكن الرد بها على سؤال « أين يقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر ؟ » أنه فى بعض البلاد الغربية استطاع إلى حد كبير أن يتسرب فى صميم دولاب الحياة الاجتماعية .

ولا جدال فى صدق ملحوظة إرنست جونز ، بأن هذا الربح الكبير فى الاتساع قد تحقق على حساب العمق أو الكيف إلى حد ما ، وكلما ازداد الابتعاد عن المصدر الأصلى « للتحليل النفسى » الخالص ازدادت درجة التهافت والضحالة . على أن القوة والعمق العلمى ، على الأقل فى النظرية ، مضمون باستمرار بقاء المحللين النفسيين المتصفين بالحزم والدقة ، مرتبطين معاً بطريقة تضمن حفظ نشاطهم بمعزل عن آثار التشويه العامى . ومع أن « الجمعية الدولية للتحليل النفسى » بفروعها القومية أو المحلية المنتشرة فى كثير من البلدان ، قد عانت كما تعانى معظم الهيئات الدولية الأخرى من الخلافات والمصاعب المتعددة الأنواع والأسباب ، فإنها تستطيع أن تفخر بتاريخ متصل إلى حد ما يمتد منذ تأسيسها فى سنة ١٩١٠ ، وبمؤتمراتها التى تنعقد كل سنتين . . . . وكان آخرها المؤتمر المنعقد فى زيورخ فى صيف سنة ١٩٤٩ وقد شهده جمهور كبير . وتحتوى أحدث قوائم العضوية المنشورة سنة ١٩٤٨ على أسماء حوالى ٩٠٠ عضو فى الجمعية ، يقيم نصفهم أو أكثر فى الولايات المتحدة الأمريكية[٢] . وتوجد فى تلك البلاد إحدى عشر جمعية مترابطة فيما بينها ، بينما توجد جمعيات أخرى فى الأرجنتين والنمسا وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا وهولندة والهند وإيطاليا وفلسطين والسويد وسويسرا ، كما أن هناك بوادر جديدة تم قبولها مؤقتاً ، وذلك فى أستراليا والبرازيل وشيلى وألمانيا .

وقد بدأ التحليل النفسى كفرع من الطب ، ولكنه فى ارتقاءاته الكبرى

---

(١) « التحليل النفسى والفنان » بقلم مصطفى سويف — مجلة علم النفس — مجلد ٢ عدد ٢

(٢) « بعض جوانب التحليل النفسى فى الولايات المتحدة الأمريكية » — مجلة علم النفس — مجلد ٦ عدد ١

سرعان ما عبر حدود الأصل الذى نشأ فى ظله . وأكثر من ذلك ، أنه للاشتغال العملى به كمنهج علاجى وسيكولوجى لم تعد الدراية الطبية لازمة ولا كافية (باستثناء ضرورة الإلمام ببعض أوليات الطب العقلى) ، ويجب ألا ننسى تلك الميزة التى ينفرد بها التحليل النفسى وهى إمكان القيام بالعلاج والبحث معاً . وقد تكون بعض الاتجاهات التى يكتسبها الشخص أثناء دراسته الطبية المعتادة (كالاتجاهات المقرونة بالميزان استعداداً لأعمال أخرى مثل التعليم أو الاشتغال بالقانون) بمثابة عائق أكثر منها معين فى الاشتغال بالتحليل النفسى . . . حيث يكون ظهور أية بادرة تدل على « التعالى » أو التسلط بمثابة ضربة قاضية على العملية كلها ، ولكن من ناحية أخرى نجد الأمراض النفسية تأتى بمضاعفات جسدية دائماً ، وقد تصحبها وتتفاعل معها أمراض فى بعض الأصول الجسدية أو أصولها جسدية أولا وآخراً ، وللكشف عن هذه الأمراض وعلاجها لا بد وأن نرى فى المعرفة الطبية ضرورة لا غنى عنها . فلابدهشنا إذاً أن تكون مشكلة « التحليل العادى » (بمعنى التحليل الذى يقوم به غير الأطباء) قد أثارت منذ زمن بعيد ولا تزال تثير بين المحللين النفسيين نقاشاً حاداً . ولاريب أن فرويد نفسه كان مبدأ لفكرة التحليل العادى ، إلا أن ممارسة التحليل النفسى لأغراض علاجية بوساطة أعضاء تعترف بهم جمعيات التحليل النفسى المختلفة ظل امتيازاً طبياً ، ولذلك تنشأ فى بعض الأمم مشاكل قانونية خطيرة حول الاعتراف الرسمى بالمحللين غير الأطباء . والأغلبية العظمى من الأعضاء التسعمائة السابق ذكرهم . . . ذوو مؤهلات طبية ، ولا يوجد فى الولايات المتحدة إلا استثناءات نادرة لهذه القاعدة . أما جمعية التحليل النفسى البريطانية ، ومعهد التحليل النفسى الذى يشرف على سياسة التحليل والاشتغال به فى هذه البلاد ، فلهما فى هذا الصدد اتجاه أكثر تحرراً ، ولو أنه يهم بأن يضم أغلبية من الأعضاء الأطباء ، كما أنه يقيد انتخاب المرشحين من غير الأطباء أكثر مما يقيد المرشحين الأطباء ، وخصوصاً إذا كان العضو غير الطبى يزمع ممارسة التحليل . وربما كان من نتائج هذه العملية الانتخابية ، أن ساهم الأعضاء غير الطبيين بنصيب يفوق نسبتهم العددية ، فى زيادة معلومات التحليل النفسى ، لا سيما فى مجالات علم نفس الطفل والتطبيقات الاجتماعية . أما من حيث التدريب ، فنحن إذا قابلنا بينه وبين عملية الانتخاب لم نجد أى فرق بين تدريب الأطباء وتدريب المحللين العاديين . وهو (فى إنجلترا على الأقل) شاق مضن ، يستغرق فى العادة ما بين ثلاثة أعوام وأربعة

وينقسم إلى ثلاثة أقسام : التعليم النظرى ، والتحليل الشخصى ، وتحليل بعض المرضى تحت إشراف وتوجيه (أى بالاستعانة بمناقشة الجلسات التحليلية مع « محلل مشرف » تعينه الهيئة . . .) وتحقيقاً « للانتباه الشخصى » المطلوب لممارسة التحليل الشخصى والإشراف ، يتطلب التدريب على التحليل النفسى مطالب باهظة فيما يتعلق بأوقات المعنيين بالتدريب ، إذ يبلغ مجموع ساعات الدراسة المخصصة لكل مرشح حوالى ألف ساعة . لذلك لا يمكن أن يزداد عدد المحللين النفسيين زيادة سريعة لمواجهة الطلب المتزايد . وإذا نظرنا إلى نفقات التحليل الشخصى ، فسرعان ما نفهم أن التدريب يقتضى المرشح تضحيات غالية — فى المال والوقت والمجهود — خاصة وأنها تأتى ، كما هى العادة ، بعد مرحلة طويلة من الدراسة الطبية أو الأكاديمية . ومع ذلك فإن معهد التحليل النفسى يستغل موارده المحدودة بأقصى درجة ممكنة لا ليتعهد جميع المرشحين الذين يحاولون الفوز بهذا التدريب بل أكثرهم صلاحية فحسب . وتلك حقيقة أخرى قد تعيننا على الإجابة عن سؤالنا ، « أين يقف التحليل النفسى فى الوقت الحاضر ؟ »

وأخيراً ، سنحاول أن نجيب على هذا السؤال من وجهة النظر العلمية . وتلك مهمة غير يسيرة . ولقد كان التحليل النفسى ينطوى دائماً على بعض المآزق الخاصة من ناحية المنهج العلمى ، ولما كانت إجراءاته الأساسية قد بقيت زمناً غير يسير دون تغير ، فلا يدهشنا أن تظل هذه العقبة قائمة . إن التحليل النفسى ضعيف من الناحية العلمية ، كما أوضح النقاد ، سواء من حيث كونه لا يتيح القيام بأية خطوة تكون لها مهمة التحكم التجريبى الصارم ، ومن حيث كونه يبدو عاجزاً حتى عن أن يمدنا بالبيانات الإحصائية اللازمة (وهى ما يلجأ إليه الباحثون . . . فى كثير من فروع علم النفس الأخرى ، عند ما لا يتوفر التجريب المضبوط بما فيه الكفاية) . وقد درجت بعض العيادات التحليلية على أن تنشر الإحصاءات بين الحين والحين ، إلا أنه من المعترف به لدى المختصين أن التقريرات الكمية الجريئة التى ظهرت تحت عناوين « شفى » « تحسن كثيراً » و « تحسن » و « لم يتغير » الخ لا تفصح عن شىء ذى بال . لا سيما وأنه لم تكد تبذل المحاولات لإقامة معايير تفصيلية ومقارنة للتحسن » Comparative الخ كما يفهمها العاملون فى مختلف الدراسات والمجالات . ولم يصل إلى علمى كذلك نبأ قيام أية محاولة منظمة للمقارنة الإحصائية بين نتائج التحليل النفسى ونتائج سائر أشكال العلاج النفسى . ولاتزال الحجة الرئيسية للتحليل

النفسى للاستحواذ على الفكر العلمى حجة برجماسية فى حقيقتها — بمعنى أنه استطاع أن يبرز وما يزال يبرز حقائق كلينيكية جديدة وتصورات نظرية جديدة برهنت على أنها مفيدة تنير السبيل إذا ما طبقت على الطبيعة البشرية بوجه عام ، بل والطبيعة البشرية فى أشد إفصاحاتها تنوعاً — من الأطوار الغريبة للعصاب لدى الأفراد إلى المآسى الاجتماعية الكبرى المتمثلة فى القلاقل السياسية والحرب العالمية .

ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الأمور غير المقنعة من وجهة نظر التحليل النفسى . وقد أوضحت من قبل كيف فشل أصحاب التحليل النفسى إلى حد كبير فى أن يواجهوا المنشقين بما يتلاءم والروح العلمى ، أولئك المنشقين الذين أكدوا وتعمقوا موضوعات كانت فى بداية أمرها جوانب جزئية فى النظريات أو الآراء التحليلية . وإليك هذين المثالين نذكرهما بالذات على سبيل الإيضاح . فمشكلة الرمزية « الوظيفية » فى مقابل الرمزية « المادية » (أعنى الرمزية المرتبطة بحالات أو عمليات نفسية فى مقابل الامتثال الرمزى للأعمال أو الأشخاص أو الأشياء القائمة فى العالم الخارجى) ، التى احتلت مكان الصدارة منذ أربعين عاماً تقريباً بفضل جهود سيلبرر Silberer ويونج ، ما تزال اليوم بعيدة عن الحل كما كانت يوم ظهرت لأول مرة ، وكذلك ظهر مقال إرنست جونز فى « نظرية الرمزية » سنة ١٩١٨ ولا يزال هو الكلمة الأخيرة فى الموضوع لعدة اعتبارات . وأغلب الظن أن الفرويديين وأتباع يونج سوف يتفقون من الناحية النظرية على أن كلا الشكلين من الرمزية قائم وأنهما متصلان فيما بينهما عن طريق عملية « التحكم الزائد overdetermination » ولكننا عند ما نقرأ التقارير والتأويلات التحليلية التى يضعها أتباع المدرستين ، نجد اختلافات هائلة حتى لا يبدو حلها أمراً شاقاً . ونظرية يونج فى اللاشعور الجمعى ورأيه فى « النماذج الرئيسية » قد يصعب بل يتعذر إثباتها أو دحضهما ، إلا أننا ربما جاز لنا أن نرجو بحق أن نكون الآن قد حصلنا على فكرة واضحة عن الأهمية النسبية لهذه الأنواع المتنوعة من الرموز وكثرة ظهورها وكينيات تفاعلها لدى المرضى الذين تجرى عليهم التحليلات الفرويدية واليونجية .

وكذلك ، انقضى أكثر من ربع قرن منذ انفصل رانك Rank (وكان من خصوبة أكثر المحللين النفسيين غير الأطباء . . .) عن زميل التحليل النفسى مختلفاً وإياهم على موضوع « صدمة الميلاد » ، وانقضى ما يقرب من ثلاثين عاماً منذ اقترح كاتب هذه السطور ، فى كتاب لا يمكن القول بأنه لم يجد أى قارئ ، اقترح اتجاهاً

معيناً فى البحث كان من شأنه أن يلقى بعض الضوء على هذا الموضوع الغامض الشيّق ذى الأهمية التى لا يمكن إغفالها. ولكن انقضت هذه الفترة ولم يوجد من يحقق شيئاً من هذه الإشارة (ويعترف كاتب هذه السطور عن طيب خاطر بأنه يستحق بعض اللوم مع غيره) . وفى الأيام الأخيرة أثيرت المسألة من جديد على يد ناندور فودور N. Fodor فى صورة تنطق بضرورة الربط بين أنواع معينة من المخاوف والتهاويم من ناحية ، وبين الوقائع الخاصة بعملية تكوين الجنين والميلاد من ناحية أخرى . والظاهر أن المحللين النفسيين قد غالوا (أو أساءوا الفهم) فى رأى فرويد القائل بأن المناقشات غير مجدية ، وأن خير ما يرد به الباحث على النقاد أن ينتج أبحاثاً جديدة ؛ إلا أن هذه الأبحاث الجديدة ليس من الضرورى أن تتجنب مقترحات النقاد حول المشكلة ، ما دامت هذه المقترحات توجهها بعض التوجيهات العلمية . على أن الصعوبة الحقيقية هى فى أن كثيراً من هذه المشكلات (كمشكلة صدمة الميلاد مثلا . . .) تتطلب بوضوح أبحاثاً مستفيضة ، تقتضى فترة قد تستغرق عدة سنوات ما بين بداية البحث والانتهاء منه ، بينما نجد مشكلات أخرى تحتم مجهوداً جماعياً واغترافاً من معارف وموارد عدد كبير من الباحثين . إن توسيع أفق البحث ، وزيادة التعاون بين المحللين النفسيين أنفسهم وبينهم وبين زملائهم العاملين فى الميادين المجاورة ، هو وحده على الأرجح الطريق الذى ييسر زيادة التقدم نحو حل بعض المشاكل المتشابكة التى أثارها التحليل النفسى ذاته .

ومن البشائر الطيبة ، أن آفاق هذه المسائل الأخيرة قد أشرقت فى السنوات القليلة الماضية ، وخاصة فيما يتعلق بالصلة بين المحللين النفسيين وعلماء النفس التجريبيين . وأجريت عدة تجارب ، يمتاز بعضها بالجرأة والأصالة ، الغرض منها اختبار الفروض العاملة فى التحليل النفسى ، أو على الأقل تناول المسائل التى أثارتها النظريات التحليلية . وتناولت الدراسات أنواع العصاب — المصنوع — التى ترجع إلى صدمات سواء فى الحيوان وفى الإنسان ، وآثار أنواع معينة من الحرمان أو مواقف خاصة أخرى واجهت المرء فى طفولته وتحددت علاقتها بسلوك الشخص فى مراحل العمر التالية ؛ واستخدمت طرق التنويم الصناعى لتوضيح بعض مشاكل « التحويل » transference وفهم الرموز ؛ ووضعت الاستخبارات وطبق الجهاز الإحصائى الضخم جهاز « التحليل العاملى » لاختبار[1]

(١) "Factor Analysis Explained", by H.B. English: The Egyptian J. of Psychology, vol. III, No. 3.

مدى تماسك بعض سمات الشخصية كما اقترحها المحللون النفسيون ولتحديد علاقاتها بخبرات الشباب التى أبرز المحللون النفسيون أهميتها فى بعض الحالات . ولقد قامت التصورات التحليلية بدور كبير فى تأويل « اختبارات الإسقاط » — روزشاخ —[1] واختبارات « تفهم الموضوع »[2] ؛ بينما وضعت اختبارات أخرى جديدة وابتكرت مواقف تجريبية بقصد دراسة الظروف التى من شأنها إذا أحاطت بالمرء أن تحمله على العدوان ، وكيف يتم ذلك بحيث ينطلق إلى الخارج لمعاقبة الغير ، أو إلى الداخل لمعاقبة الذات — وتلك مشكلة أثارها التحليل النفسى باكتشافه للعدوان (أو للدوافع أخرى) « إذ يتجه ضد الذات » . إلا أن هذه الدراسة ما تزال مهوّشة (كما هى الحال فى معظم البحوث السيكولوجية التى تتناول الانفعال والشخصية) ، ولا تزال نتائجها التى تمس آراء التحليل النفسى مثاراً لنقاش حاد . ولكن أقل ما فى الأمر أننا نكون محقين إذا قلنا إن النتائج الرئيسية حتى الآن لا تتنافر مع النتائج التى سبق للمحللين النفسيين أن وصلوا إليها ، بل إنها لتبدو فى بعض الحالات تأييداً جديداً لا شك فى قيمته . وإذ يزداد عدد علماء النفس الأكاديميين من ذوى الاهتمام بالتحليل النفسى ، وممن يروضون أنفسهم على مقتضياته ، وإذ يزداد عدد المحللين النفسيين ممن يلجأون بدورهم إلى المناهج « الموضوعية » حيثما وجدوا السبيل إليها ، فثمة أمل فى تعاون أوفق ونشاط أفضل فى المستقبل القريب . ومعنى ذلك أنه فى هذا المجال أيضاً مجال الوقعة العلمية ، استطاع التحليل النفسى أن يقف على قدميه . وبينما نجد التقدم فى بعض الاتجاهات لم يتحقق بالسرعة التى كنا نرجوها ، وبينما نجد هذه الحقيقة بدورها راجعة — إلى حد ما — إلى العزلة النسبية للتحليل النفسى حتى الماضى القريب (وهى ظاهرة تعكس بطريقة مبالغ فيها بعض الشىء ، وضع المدارس السيكولوجية بوجه عام) ، فإن التحليل النفسى برغم ذلك قد بدأ يتفاعل تفاعلا مثمراً مع تلك الفروع من الدراسات الإنسانية التى تمتاز بالحرص والتأنى وتقصر نفسها على المناهج « الدقيقة » . وقد تضحى فى سبيل ذلك ببعض جوانب النفس البشرية رغم أهميتها وشدة جاذبيتها فتتركها دون أن تقترب منها . وتوجد عدة دلائل تدل على أن التحليل النفسى يقف اليوم على عتبة

---

(١) « اختبار روزشاخ » بقلم الدكتور إسحق رمزى — مجلة علم النفس — مجلد ٢ عدد ٢

(٢) « اختبار تفهم الموضوع » — بقلم الدكتور إسحق رمزى — مجلة علم النفس مجلد ٢ عدد ٣

مرحلة يتم فيها التداخل والتفاعل بين عبقرية فرويد الثاقبة . . . وبين دقة فونت Wundt وصبره ومثابرته ومن ورائه أولئك الذين حذوا حذوه من أتباع هذه المدرسة أو تلك — وهو تخالف ينبىء بالشيء الكثير في سبيل فهم الإنسان لمشاكله التي تفرضها عليه طبيعته الغريبة المعقدة .

ترجمة
مصطفى سويف